المقاربة السوسيولوجية في البحث الاجتماعي:

محاولة ميتودولوجية امبيريقية من أجل تجاوز اشكالية الاختيار، العرض والتوظيف .

Sociological Approach to Social Research::
An empirical Attempt to Overcome the
Problematic Selection, Presentation and Aplication.

د. نور الدين بولعراس
جامعة غرداية
Boulares.noureddine@univ-ghrdaia.dz

ملخص:

تكشف تجربة البحث السوسيولوجي في الجامعة الجزائرية، عن مجموعة من الصعوبات عند كثير من الطلبة و بعض الباحثين، تتجسد في صورة ذلك التبعثر وعدم القدرة على تأثيث البحث، بما يخدم منطقه الجدلي منهجيا، نظريا، وامبيريقيا. ولعل ان اختيار المقاربة السوسيولوجية وعرضها وتوظيفها في البحث الاجتماعي، يمكن اعتباره أحد أهم الصعوبات والاخفاقات التي يواجهها المشتغل بالبحث في علم الاجتماع.

إن البحث السوسيولوجي ليس تكديسا لنظريات ومفاهيم ومقاربات، بل هو استدعاء منهج يحذر وواع لكل هذا، لذا ستحاول أوراق هذا المقال واعتمادا على نماذج نظرية وأمثلة تطبيقية، التخفيف من حدة هذا الارتباك والتوجس الذي يواجهه المشتغل بالبحث في علم الاجتماع، كلما كان الحديث عن المقاربة السوسيولوجية اختيارا، عرضا وتوظيفا .

كلمات مفتاحية: المقاربة السوسيولوجية- منهجية اختيار عرض وتوظيف المقاربة السوسيولوجية.

Abstract:

The experience of sociological research at the Algerian University ,reveals a number of difficulties for many students and some researchers,is reflected in the image of this scattering and inability to furnish the search, theoretically and empirically serve their dialectical method. Perhaps the choice of the sociological approach and its presentation and using it in social research may Can be considered one of the most important difficulties, and failures faced by a researcher in sociology.

Sociological research is not accumulation of theories, concepts and approaches, but a systematic and cautious summary of all this. There fore, So we will try through the papers of this article , which are based on theoretical models and practical examples To alleviate this confusion and anxiety faced by the researcher in sociology,. Selection, Presentation and Aplication.

Key words: Sociological Approach - Methodology of Selection, Presentation and Aplication of the Sociological Approach.

تمهيد إشكالي:

إن التعامل مع نظريات علم الاجتماع على أنها أرشيف مهمل يمكن تجاوزه، أو الاطمئنان الكلي إلى هذا الأرشيف، اطمئنانا يدفع بالباحث إلى إجراءات "الترزيم"، أو التجميع المكثف لهذه النظريات، دون حاجة بحثية آنية براغماتية، كلا هاتين النظرتين تقعان خارج المنطق المنهجي للبحث السوسيولوجي.

والحقيقة انه إذا كانت النظرية جهازا مفاهيميا معرفيا افتراضيا، يوصف بأنه مجردا ويحقق قدرا عاليا من الترابط والتناسق، فان تزكية مقولات هذا الجهاز علميا- نظريا وامبيريقيا- ما كانت لتتم لولا الجاهزية التي يتمتع بها هذا النظام المعرفي الافتراضي، لاقتراب الواقع الاجتماعي وتفسيره، وبهذا المعنى تصبح المقاربة السوسيولوجية تعني المرور بالمفاهيم من حالتها النظرية المجردة، إلى الحالة الامبيريقية الملموسة، بغية بناء الواقع الاجتماعي وتحويله إلى واقع علم واجتماعي، ليس بكل الجهاز المفاهيمي النظري ضرورة، بل

قد يكون ببعض منه. هذا وقد سميت مقاربة كذلك لاستحالة عملية المطابقة التامة للمفهوم النظري بالواقع العياني، وذلك لخصوصيات مجتمعية كثيرة.

لذا فان الحديث عن المقاربة السوسيولوجية، يجد مشروعيته في السؤال التالي: كيف وبأي جهاز مفاهيمي يمكن للباحث في علم الاجتماع، أن يدرك واقع موضوع بحثه ويراقب متغيراته؟.

المقاربة السوسيولوجية: تحديد لغوي،ماهو يوامبيريقي للمفهوم

" يرجع مدلول مصطلح مقاربة (Approche) في اللغة إلى الدنو والاقتراب، مع السداد وملامسة الحق، فيقال: قارب فلان فلانا إذا دناه، كما يقال: قارب الشيء إذا صدق وترك الغلو ومنه: قرب، أي: أدخل السيف في القراب."(مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1972، ص723).

أما من الناحية **الماهوية** أو **النظرية**، المقاربة السوسيولوجية هي: " أنموذجيات نظرية، مفاهيم مفتاحية، نتائج بحث قيمة، تشكل في مجموعها عالما مألوفا للتفكير عند الباحثين، في فترة محددة من تطور تخصص معين.".(جاك هارمان، 2010، ص 16).

في حين يقول(ج. ميشال برتيلو Michel Berthelot .J1999،ص81.):" في الواقع هناك عنصر...يجب أخذه بعين الاعتبار، وهو ما يسمى حسب المؤلفين مقاربة أو مثالا نموذجيا أو نمطا من الفهم،فيتعلق الأمر بطريقة محددة في بناء موضوع الدراسة نظريا و اختباريا في الوقت نفسه، بإعطاء الأفضلية لعلاقة معينة أو لبنية تفسيرية..."

بهذا المعنى تصبح إذا المقاربة السوسيولوجية تعني **إجرائيا**: جملة المفاهيم التي زكتها تجربة البحث الاستكشافي وتبنتها الدراسة، أي أن للمقاربة السوسيولوجية هوية، وهويتها هي نسبها العلمي أو حقلها النظري الذي تنتمي إليه، مما يتعين على الباحث مسؤولية تدقيق المستند المعرفي لدراسته، أي ربط مفاهيم مقاربته بإطارها النظري المنتمية إليه كما أشرنا.

إلا أن هذه العملية تتطلب ثقافة نظرية للباحث، أي معرف تهب أصول النظرية السوسيولوجية وتفرعاتها، سواء أكان ذلك مرتبط بعلم الاجتماع العام، أو بإحدى تخصصاته.

المستويات البنيوية في اختيار، عرض وتوظيف المقاربة السوسيولوجية:

1- هناك مستويين بنيويين في اختيار المقاربة السوسيولوجية هما كما يلي:

أ- مستوى التراث النظري السوسيولوجي العام.

ب- مستوى التراث النظري السوسيولوجي المتخصص.

أي أن الباحث يختار مقاربته إما من الماكروسوسيولوجي،أو أن يختارها من الميكروسوسيولوجي، مع الإشارة انه كلما كان اختيارها من هذا المستوى الأخير كانت أفضل لأسباب كثيرة ، أهمها عل الإطلاق القرب المفاهيمي الذي تعتبر نظريات التخصص حقله ووعائه المباشر .

2- كما أن للمقاربة السوسيولوجية منهجية خاصة في عرضها وتوظيفها:

أ.على مستوى العرض:

- تبيين الإطار النظري الذي تنتمي إليه هذه المقاربة؛
- عرض المفاهيم الكبرى لهذا التيار النظري؛
- عرض الإشكالية العامة لهذا التيار النظري؛
- عرض الفرضية العامة لهذا التيار النظري؛
-ثم أخيرا عرض مفاهيم المقاربة السوسيولوجية الخاصة بالدراسة.

ب- على مستوى التوظيف:

هناك سؤالا يمكن أن نطرحه في هذا السياق: ماهي المؤشرات الدالة على أن دراسة ما، قد وظفت لمقاربة سوسيولوجية ؟

إن المؤشر القوي يتجلى أولا على مستوى البناء النظري للدراسة، فإذا كنا نتكلم على أن المقاربة على علاقة بالمفاهيم التي صغنا بها أسئلة إشكالية دراستنا، وعلى علاقة كذلك بالمفاهيم التي تحولت إلى متغيرات في فرضياتها، فينبغي أنيتحول كل هذا –خصوصا الفرضيات

–إلى فصول ومطالب وغيرها في الجانب النظري لهذه الدراسة.

المؤشر القوي الثاني يتجلى في الجانب الميداني للدراسة، ونعني بالضبط التفسير أو التأويل السوسيولوجي للبيانات الكمية والكيفية للدراسة، والذي يستلهم فيها الباحث خياله السوسيولوجي من مفاهيم المقاربة المتبناة في هذه الدراسة.

أمثلةتطبيقية :

- المثال الأول :الامتيازات الثقافية عند التلميذ وعلاقتها بالنجاح والفشل المدرسي في المدرسة الجزائرية.

أولا: ماهي المساعي المفضية إلى اختيار مقاربة سوسيولوجية مناسبة لهذا الموضوع؟.

لاشك أن الوصول إلى هذا المسعى يتطلب قطع أشواط منهجية حتمية، فالموضوع يحتاج إلى عملية افتكاك ميداني ونظري، أي إلى استطلاع نمارسه، فالمادة التي تكون قد جمعت نظريا وامبريقيا وأخضعت للنقد، كفيلة بمدنا بالتصورات حول طبيعة تلك المفاهيم، التي سوف نعيد من خلالها صياغة موضوع دراستنا، والاستقرار النهائي حول متغيراته المشكّلة له، لأننا في مرحلة نبحث فيها عن الاستقرار المفاهيمي لدراستنا:

أ- في عنوانها؛ب- في اشكاليتها؛

ج- في فرضياتها؛د- في مقاربتها السوسيولوجية.

الشكل رقم(01) يوضح دور ومكانة المفاهيم في علاقتها بمستويات بنيوية في البحث السوسيولوجي:

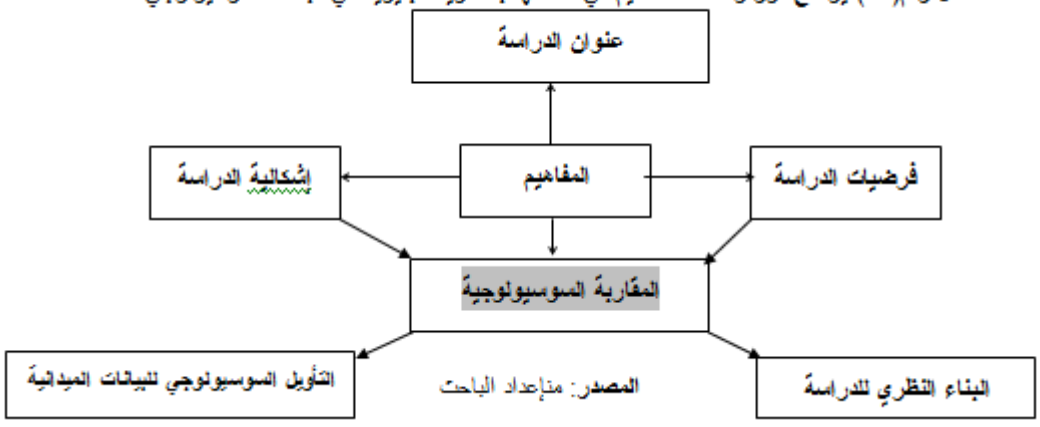

ولنفترض أن هذه الخطوة قد نفذت وفق شروط الافتكاك المعلومة منهجيا، ولنفترض كذلك أننا قد قمنا بتحليل متغيرات دراستنا، سيما المتغير المستقل، الذي هو في المثال السابق: (الامتيازات الثقافية)إلى بعدين:

- بعد الرأسمال اللغوي؛
- بعد القيم الجمالية.

جدول(1) يوضح التحليل المفهومي للمتغير المستقل" الامتيازات الثقافية" في المثال السابق:

المتغير المستقل	البعد	المؤشر
الامتيازات الثقافية:	- الرأسمال اللغوي:	- ثراء الملكة اللغوية؛ - سعة الخيالوالتجريد اللغوي؛ - قوة الربط وتطويع اللغة حسب سياق التوظيف؛ - التعامل مع المادة اللغوية بارتياح وتركيز...الخ.
	- القيم الجمالية:	- التنسيق؛ - التنظيم؛ - الذوق في انتقاء واختيار الألوان واستعمالها؛ - القدرة على التعبير الجمالي باستعمال الوسائط المختلفة: كالرسم والإنشاء وغيرها؛ - جمالية ومقروئية الخط...الخ.

المصدر: من إعداد الباحث

لتصبح دراستنا تتساءل بعد السؤال المركزي الذي يقول:

هل الفشل والنجاح المدرسي على علاقة بالامتيازات الثقافية عند كل تلميذ ؟

وبعد عملية تفكيك متغير الامتيازات الثقافية إلى بعدين أساسيين، كما وضحنا ذلك في الجدول السابق، سنتساءل:

- هل الفشل والنجاح المدرسي على علاقة بالرأسمال اللغوي عند كل تلميذ؟
- هل الفشل والنجاح المدرسي على علاقة بالقيم الجمالية عند كل تلميذ؟

وبعد صياغة فرضيات مناسبة لهذه الأسئلة، تأتي مرحلة التقنين المنهجي للمقاربة السوسيولوجية : في اختيارها، وفي منهجية عرضها وتوظيفها.

نحن الآنأمام أكثر من بديل نظري في اختيار مقاربتنا، وأي بديل سيقع عليه اختيارنا علينا أن نبرره منهجيا.

إن مفهوم السببية في علم الاجتماع رُبط في تراث هذا الأخيرأحيانا بالبناء،وأحياناأخرى بالفاعل، وأحيانا بالماكرو السوسيولوجي، وأحيانا أخرى بالميكرو السوسيولوجي، باختصار رُبط أحيانا بالكل وأحياناأخرى بالجزء. لذلك قلنا نحن أمام مجموعة بدائل:

البديل المقارباتي الأول :

مقاربة ذات توجه نظري صراعي نقدي: النجاح والفشل المدرسي بالنسبة لها، على علاقة ببنية الهيمنة وبنية الجدارة والاستحقاق، أو ما يسميه بورديو P. Bourdieuإعادةإنتاج علاقات السيطرة أو الهيمنة، فالتلميذ المنتمي اجتماعيا لهذا النوع من التصنيف الفئوي والطبقي، يختزن في ذاكرته رصيدا لغويا هائلا، بالمقارنة مع تلميذ من غير هذا التصنيف،فالأول يستعمل لغة تجريدية، وله بروتوكول واهتمامات ثقافية، ومدى اجتماعي من العلاقات، ورصيد من الخبرات لم تكن متاحة لزميله، وهما إذيتقدمانإلى الامتحانات وباقي الاستحقاقات المدرسية الأخرى، منطقي أن ينجح الأول ويفشل الثاني، لان واقعهما يعكس لتعسف ثقافي مشروع، تفرضه الطبقات المهيمنة التي تمرر هذا النوع من العنف الرمزي.

البديل المقارباتي الثاني :

مقاربة ذات توجه نظري فرداني منهجي(الفردانية المنهجية):

ترى أن ظاهرة الفشل والنجاح المدرسي، تكشف عن فعل استراتيجي يتعين على الباحثين المهتمين به مهمة تحليله، فالفشل المدرسي مثلا يرتبط بالفاعل الاجتماعي واستراتجياته، فهو يعبر عن تجربة إستراتيجية مهمة في المشروع الشخصي للفاعل، فالمدرسة لم تعد رهانا لتحقيق مكانة اجتماعية مثلا عند بعض الفاشلين مدرسيا،أو أن يصبح الفشل معبرا عن رفضهم لنمط التعليم والثقافة المدرسية السائدة فيها، وعليه ووفق هذا المنظور يعد الفاشل مدرسيا معبرا عن فئة أو جيل، لم يعد الفرد فيها شخصا "...مسالما خاضعا لتكوين هيئ من قبل(الآخر) الذي يتحكم فيه، بل أصبح يعتبر فردا نشيطا فعالا له نظامه القيمي الخاص به، كما غدا قادرا على... الاعتراض والرفض للأمور التي تتنافى مع رؤيته."(عبد الكريم غريب، 2012، ص 144).

- المثال الثاني : أزمة حوافز التحصيل الجامعي وعلاقتها بمعضلة التوظيف والإدماج المهني للمتخرج من الجامعة.

- البديل المقارباتي الأول:

يمكن أن نسجل هذا الموضوع ضمن مقاربة الحوافز عند أبراهام ماسلوAbraham H. Maslow، ومنه الإطار النظري الذي ينتمي إليه هذا الموضوع هو: مدرسة العلاقات الإنسانية لالتون مايو Elton Mayo ، هذه الأخيرة " تتميز بمقاربة غير رسمية للتنظيم في المؤسسة تستند على العلاقات والسلوكات الإنسانية..."

(Reger Aim, 2006, p12.)،والتي تنطلق من فرضية عامةمفادهاأن هناك رابط بين الأساس السيكوسوسيولوجي للفاعل في التنظيمات وبين أدائه.

بينما ينطلق ماسلو باعتباره احد رواد هذا التيار النظري، من فرضية جزئية مفادها أن: فهم حاجات الفاعل التنظيمي الأساسي منها والثانوي، والعمل على تلبيتها حسب الضرورة، يؤدي إلى تحقيق عوائد ايجابية محتملة على أهداف التنظيم.إذ" هناك سيكولوجية حقيقية واختلافات عملية بين تلك الحاجيات التي تدعى مرتفعة، وتلك التي تدعى منخفضة، ويتم ذلك من أجل إثبات أن الإنسان نفسه، يميل إلى الترتيب التسلسلي للقيم...فالحاجاتالأساسية ترتب نفسها في تسلسل هرمي إلى حد ما، على أساس مبدأ القوة النسبية، وعليه فان الحاجة للسلامة أقوى من الحاجة للحب... كما أن الحاجات الفيزيولوجية أقوى من حاجات السلامة، التي هي أقوى من حاجات الحب، هذه الأخيرة التي بدورها أقوى من حاجات التقدير، والحاجة للتقدير هي أقوى من حاجات تحقيق الذات." (Abraham H, Maslow, 1954, p97-98.)

كما يناقش وفي نفس هذا المنحنى النظري كل من:فريدريك هيرز بيرغودوغلاس ماك غريغور وكريس ارجيريس، مصادر الرضا وعدم الرضا، التشاؤم والتفاؤل في التنظيمات، بحيث يؤدي فهمها وتشخيصها والتعامل معها ايجابيا،إلى مزيد من الدافعية والتعلم عند الفاعل التنظيميوالتعلق بمهنته وبمكان عمله.

-**البديل المقارباتي الثاني:** يمكن أن نسجل هذا الموضوع ضمن مقاربة نسقية احتمالية في سوسيولوجيا التنظيم والعمل، فرضيتها الأساسية هي أن المؤسسة كتنظيم، تحيا ضمن شروط إكراهية مفروضة من طبيعة البيئة المركزية(الداخلية والخارجية) لتنظيم المؤسسة، وهي التي تشكل عاملا مفسرا لطبيعة التنظيم السائد فيها ومشكلاته. فحسب هنري مينتزبرغ Henry Mintzberg في فرضيته حول العوامل الاحتمالية الطوارئية للتنظيم، يحتل مفهوم المحيط صدارة هذه العوامل، إذ يوجد حسبه رابط أساسي بين التنظيمات ومحيطها، فلا يمكن أن تكون أهداف التنظيم متجاهلة لمحيطها في احتياجاته واستهلاكه وغيرها.

المثال الثالث: الفعل الاستراتيجي في الممارسة السياسية عند المثقف الجامعي الجزائري

- البديل المقارباتي الممكن لهذا الموضوع:

يمكن أن تندرج إشكالية موضوع: "الفعل الاستراتيجي في الممارسة السياسية عند المثقف الجامعي الجزائري"، ضمن منظور نظري أوسع هو بالإجمال منظور التحليل النسقي للفردانية المنهجية، ولما كان التحليل النسقي هو تقليد سوسيولوجي، لا يمكن أن يختزل في اتجاه الفردانية المنهجية، فإنه يستدعي منا ذلك أن نبين مسلماته العامة ومقولاته في علم الاجتماع بشكل عام، بعد ذلك نتفرغ إلى تخصيص مسلماته ومقولاته في مقاربتنا السوسيولوجية "الفردانية المنهجية".

"إن أدبيات علم الاجتماع تستند دائما إلى نظرية الأنساق، وكأن الأمر يتعلق بشيء واحد، لكن عندما ننظر إلى ما هو أبعد... فهناك العديد من نظريات الأنساق... لكن بشكل عام، مازال بإمكاننا التعرف إلى الفرع المعرفي الذي انطلقت منه هذه الأفكار"(نيكلاس لومان2010،، ص55).

أي بمعنى آخر أن علماء الاجتماع إذا ما سألناهم: ما التحليل النسقي؟ سوف يجيبون بطريقة تعددية، تعمق الخيار الثنائي لديهم حول عدد من قضايا الاجتماع الإنساني، مما يدل على أن التحليل النسقي هو منهجية أو نموذج اشتغلت عليه عدد من نظريات علم الاجتماع، اختلفت مقاربتها ومقولاتها التحليلية وفرضياتها. هذا المفصل التحليلي هو ما سنعمل على توضيحه في الفكر البنائي الوظيفي عامة، وبين موضوع مقاربتنا السوسيولوجية للفردانية المنهجية خاصة.

يقدم لنا "غي روشيه Guy Rocher" في مؤلفه: "مقدمة في علم الاجتماع العام": التنظيم الاجتماعي، مسلمة التحليل النسقي في الاتجاه السوسيولوجي الكلاسيكي كما يلي:

"إنما هم (علماء الاجتماع الكلاسيكيون) مجمعون في النهاية، على ضرورة تحليل نسقي للواقع الاجتماعي، أي تحليل ينجم عن المسلّمة التي مفادها، أن الواقع الاجتماعي يكشف عن الخصائص الأساسية للنسق، والذي ينبغي بالتالي إعداد النماذج المفهومية...النظرية الضرورية لتفسير الظواهر الاجتماعية، كما لو أنها مكونة نسقا اجتماعيا"(غي روشيه، 2002، ص325).بينما يقوم "جان ميشال برتيلو" في مؤلفه: "بناء علم الاجتماع"، بتقديم عناصر هذه المسلمة قائلا:

"-ضرورة القيام بالتمييز بين الكل وعناصره؛

- تكوين هذه العناصر ليس فقط كأجزاء من الكل، وإنما على اعتبار أنها تساهم في وظيفته؛

- عدم اختزال الكل بمجموع أجزائه أو بعبارةأخرى، هيمنة الكل على الأجزاء...إن الجسم الحي هو المثال التقليدي لتنظيم هذا النوع "(جان ميشال برتيلو، ص 82- ص 83).

إنه في الاعتبار السوسيولوجي الكلاسيكي، خاصة البنائي الوظيفي منه، يدعى كل نسق أنه وظيفي عندما يحقق درجة من الانتظام الغائي بين وحداته البنائية، أو ما يمكن أن نطلق عليه بالوظيفة الاستمرارية للنسق، والتحليل النسقي ينصب وفق هذا التصور ويهتم بشروط استمرار النسق الاجتماعي، فانطلاقا من نظرية نسق المناعة في العلوم الحية، فإن المجتمع يمتلك هذه الميكانيزمات الدفاعية والقدرات الذاتية لمراقبة شروط استمراره كنسق: "الأولوية المعطاة لدراسة النظام الاجتماعي وتوازناته كأساس للتفسير، حكمت المقاربات ذات الأطروحات البنيوية حتى الستينات".(جان ميشال برتيلو، ص112).من القرن الماضي، ويعتبر مفهومي "الوظيفة والدور" آليتين لتحقيق شرطا التوازن والاستمرار، ولا يمكن عزلهما بشكل تعسفي عن بنية النسق الاجتماعي وعن محيطه.

فالتحليل النسقي عند "تالكوتبارسونزTalcotParsons" باعتباره أحد أهم أعلام هذا الاتجاه يتعين " بضرورة تحديد الشروط الوظيفية الأولية لكل نسق اجتماعي، تلك الوظائف الأساسية والضرورية لوجود النسق والمتمثلة في التكيفAdaptation(A)تحقيق الأهداف AttainmentGool(G)،الاندماجIntegration (I)، والكمون Latency (L)، وهو ما يسمح بتمييز أربع مستويات من التحليل على مستوى المجتمع الكلي: المستوى الاقتصادي (A)، المستوى السياسي (G)، المستوى الاجتماعي (i) والمستوى الثقافي (L)".(جاك هارمان، 2010، ص112).

ان "بارسونز" الذي يبدي عناده الشديد لمخطط التحليل النسقي (AGIL)، بحيث يرى فيه النموذج الوظيفي الأمثل لكل نسق اجتماعي، نستطيع أن نستنتج أن خلاصة أعماله تعتبر توليفا نظريا ناجحا لكل من أعمال "دوركايم" "وفيبر"، فاستلهم من الأول أفكاره عن النسق ومن الثاني أفكاره عن الفعل: " فالفعل غير ممكن إلا بوصفه نسقا، هذه نقطة انطلاق بارسونز على كل حال... والفاعل هو جانب في تحقيق الفعل فقط ".(12)

إن هذه الإطلالة السريعة على مسلمات ومقولات التحليل النسقي في الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي، كانت تبدو لنا ضرورية جدا، بغية الوقوف على مسألة تناسل الأفكار حول منهجية التحليل النسقي، وصولا إلى إسهامات الفردانية المنهجية، هذه الأخيرة التي سنتساءل عن ماهية مسلماتها ومقولاتها التحليلية النسقية؟.

إذا كانت النماذج التفسيرية في علم الاجتماع التي اشتغلت على مفهوم مصطلح "التوازن"، تعتبر واحدة من أقدم منابع الفكر النسقي في الفكر الوظيفي البنائي، فإن النماذج التي اشتغلت على مفهوم مصطلح "الفهم"، تعتبر من أقدم منابع الفكر النسقي لنظرية الاختيار العقلاني: "...نجد منابع هذا الطرح لدى ماكس فيبر إذ يقول إذا أراد المرء شرح فعل ما، فلا بد له قبل ذلك من تحديد التمييز بين الغاية والوسيلة، أي لا بد له من أن يرى أن الفاعل يفهم ذاته، ويمكن فهمه لدى سؤاله عن الغاية التي يستخدم من أجلها الفعل وسيلة لذلك، تحشر بهذا إشكالية العقلانية في المصطلح".(نيكلاس لومان،2010، ص311).

نهتم بفكرة العقلانية في الفعل الاجتماعي الحر المستقل، لأنها تعتبر من التراكمات المعرفية المباشرة لمسلمات مفاهيم الفردانية المنهجية التي يمثلها الفرنسي"ر.بودون Raymond. Boudon"، والتي نستطيع أن نحدد مفهومها كمايلي:"الفردانية المنهجية...تلك الخطوة المنهجية التي تظهر قيام العلوم الاجتماعية على أساس مبادئ معرفية، بغية فهم وتفسير الظواهر الاجتماعية ".(نيكلاس لومان،2010، ص30).

"الفردانية المنهجية تشرح الظاهرة الاجتماعية مع تحليل السلوكات الفردية، وكيف أن الظواهر الاجتماعية هي تجميع لنتائج هذه السلوكات في نفس الوقت"(.Yao Assogba, p43)

وقد جاء تحديدها عند " ريمون بودون" في قوله: " كل الظواهر لا يمكن فهمها أو تفسيرها، إلا إذا افترضنا أن الفاعلين الفردانيين هم أصل ومنشأ هذه الظواهر "(.Yao Assogba, p44)

هذا القول لـ:"ريمونبودون" هو بمثابة المسلمة العامة للفردانية المنهجية، وعلى العموم يمكن القول أن هذه الأخيرة تقوم على مسلمتين أساسيتين كالأتي:

" - التصرفات والأفعال الفردية لا يمكن فهمها، إلا بعد إدراجها ضمن نموذج فردي عقلاني؛

(1)- تفسير الظواهر الكلية يجب استنتاجها أو استخلاصها بالتزامن مع تركيب الأفعال الفردية" Mohammed Bensaid,, 2007, p27.)).بينما تقوم المنهجية الكليانية أو الشمولية (Holisme) على نقيض هاتين المسلمتين، بحيث تعتبر أن الأفعال الفرديةلا يمكن فهمها، إلا بعد إدراجها ضمن المجموعات الاجتماعية التي ينتمون إليها، كما أن تفسير الظواهر يجب أن تستنتج وتستخلص من تصرفات وأفعال الجماعات

الاجتماعية.لكن يبقى أن كلتا: " المنهجيتين (الفردانية والكليانية) الموضوع النهائي لهما، هو تفسير الظواهر الجماعية، الفرق يمكن رصده على مستوى الوحدات الوجودية الأساسية، الفرد وعقلانيته أو المجموعة وتحددها"(Mohammed Bensaid,, 2007, p27) . أما "فيليب بيرنو Philippe Bernaux" في مؤلفه "سوسيولوجيا التغيير في المؤسسات والتنظيمات Sociologie Du ChangementDans Les Entreprises Et Les Organisation "، فيهتم في الفردانية المنهجية بقضايا الفعل الذي يرى أنه لا تنتجه الإكراهات والضغوطات التنظيمية، بل هو فعل ممأسس على حد قول فيبر، أي بمعنى أن الفاعل يحتفظ بهامش من الاستقلالية في فعله، حتى وإن كان يسلك وفق شروط وقواعد محددة "الفاعل موضوع الفعل، يمتلك جزءا من الاستقلالية، وبأن فعله له معنى بالنسبة لمشروعه الخاصوللآخرين"(Philippe Bernaux, 2010, p21). بحيث أن "فكرة الفردانية المنهجية ليست مناقضة لفكرة الإكراه، إن استقلالية الفاعل مدمجة داخل حشد من الإكراهات، حيث يحاول الفاعل أن يحولها في سياق وظيفة سير الأهداف التي يعطيها إياها"(Philippe Bernaux, 2010, p21).اذ أن الفرد كائن عقلاني له القدرة على الفعل، هذه المقاربة يمثلها "ر. بودون" والتي ترفض أن يفسر علم الاجتماع الأفعال الفردية من خلال "حتمية اجتماعية"، يعني مفهوم عقلانية أفعال الفرد ناتجة كليا أو جزئيا عن قرار أو اختيار أو حساب قائم على البدائل العديدة الممكنة، ولما كانت الفردانية المنهجية كمنهجية أو نموذجا تحليليا، إسهاماتها تندرج ضمن تطوير تقاليد التناول الفهمي في الاختيار العقلاني عند الفاعل "الفيبيري"، فإننا نجد أن هذه الحقيقة يقرها "ر. بودون" في قوله:" علم الاجتماع (كما يقول فيبر) لا يمكنه هو أيضا أن يباشر إلا أعمال فرد أو بضعه أفراد ...ولهذا السبب يتوجب عليه أن يتبنى طرائق ذات نزعة فردية...المعنى المنهجي لمفهوم النظرية الفردية المنهجية دلالة أخرى مختلفة كل الاختلاف، إنه ينطوي فقط على أننا ينبغي أن نكتشف لتفسير ظاهرة اجتماعية أسبابها الفردية، أعني أن نفهم البواعث الموجودة لدى الفاعلين الاجتماعيين، التي تدفعهم لأن يفعلوا ويعتقدوا ما يفعلون..."(ريمون بودون، 2007، ص39).إذا وحسب "بودون" الأفعال الفردية تنتج بفعلتلاقيها الظواهر الاجتماعية، كما أشرنا سابقا في المسلمة العامة لمفهوم الفردانية المنهجية، ذلك لأنها تتميز بثلاث خصوصيات رئيسية:

أولا: إنها (أي هذهالأفعال) تحركها دوافع فردية؛

ثانيا: إنها أفعال مقصودة موجهة لتحقيق أهداف محددة؛

ثالثا: إن هذه الدوافع وهذه الأهداف، إنما يتطلب تحقيقها توظيف موارد خاصة، كلما انعقد تفاعلاجتماعي بين فرد ومجموعة أخرى من الأفراد، ضمن وضعيات اجتماعية معينة.

بهذا المدلول تظهر أن الفردانية المنهجية وكما قدمها "بودون" لهااستلهامات متعددة، قد تتعدد حقول هذا الاستلهام، وهو ما يوضحه الشكل البياني التالي:

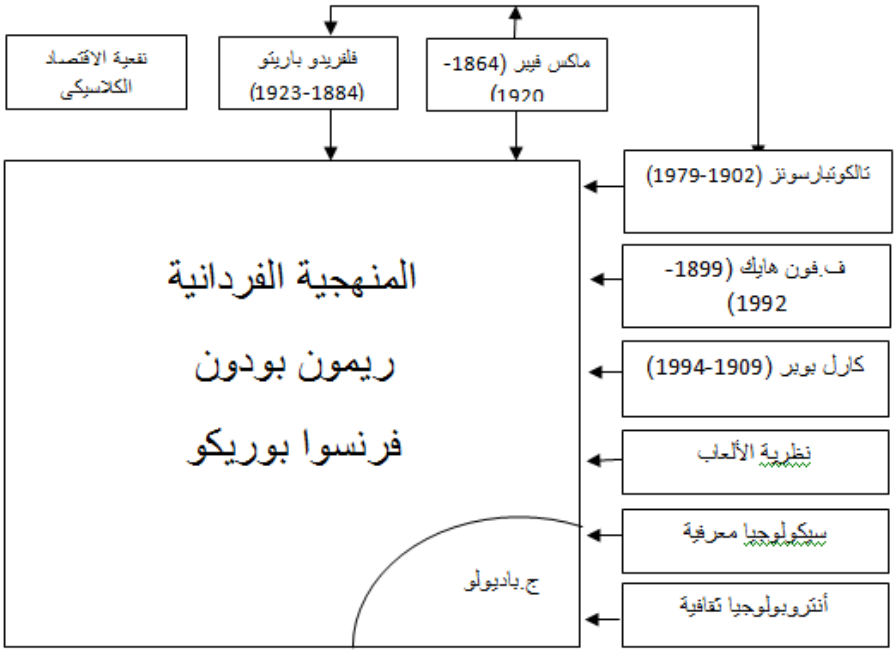

الشكل رقم (02): يوضح المصادر الفكرية للفردانية المنهجية

-المصدر: (جان بيار دوران، روبير فايل، 2012، ص259) .

وبالإضافة إلى هذه المصادر المختلفة لحقول الفردانية المنهجية كما بينها الشكل السابق، يمكننا وفي سياق ذكر " ريمون بودون" لمسألة ضرورة توفر الموارد اللازمة لتحريك الدوافع الفردية وتحقيق الأهداف، أن نستنتج لهذه المسألة تقاطعا خاصا في التحليل الاستراتيجي لـ:"ميشالكروزيه Michel Crozier": " إن طوارئ البناءات البشرية الناتجة عن مناطق الارتياب وحرية الفاعلين، تدفعنا للتساؤل عن العلاقات القائمة بين نموذج كروزيه والفردانية المنهجية عند ريمون بودون، فكلاهما قائم على مسلمة حرية الفاعلين أو حرية الأفراد المحدودة بالتنظيم، باعتباره مجموعة آليات مختزلة تقلل بصفة معتبرة من الإمكانيات التفاوضية عند الفاعلين"(جان بيار دوران، روبير فايل، 2012، ص259) .

وإجمالا يمكننا القول أن مسلمة حرية الفاعلين ومواردهم الخاصة في الفعل، تشكل أهم تقاطعات الفردانية المنهجية بالتحليل الاستراتيجي لرائديهما "ر. بودون" و"م.كروزيه" على التوالي، اللذين حاولا وضع نشاط الذات الفاعلة وخياراتها وتفاعلاتها مع الآخرين في مركز اهتمام المعرفة السوسيولوجية، هذه المعرفة عندهما بمجموع خبراتها النظرية والميدانية هي التي توفر لموضوع: الفعل الاستراتيجي في الممارسة السياسية عند المثقف الجامعي الجزائري، نظرتة التساؤلية والنقدية في مقاربته السوسيولوجية.

خاتمة:

بعد تتبعنا لهذه الأمثلة الشارحة لمفهوم المقاربة السوسيولوجية في هذا المقال، والتي حرصنا على أن تكون متنوعة ومن تخصصات مختلفة في علم الاجتماع، نستطيع أن نقول أن المنطق الابستمولوجي والمنطق المنهجي في البحث السوسيولوجي، هما منطقان يحتفظان بصفة الأولوية على أية منطق آخر في هذا النوع من البحوث، كما أنه إذا كان باستطاعتناأن نختزل لغة علم الاجتماع بقضية المفاهيم، فان البحث الاجتماعي يصبح بدون لغة إذا فشل في اختيار مقاربته السوسيولوجية، لأنها هي وحدها من يوفر هذا الشرط، وعليه تصبح كل دعوى إلى تذييل دور المقاربة أو إلغائها بالجملة في البحث السوسيولوجي، هي محاولة تبريرية للتعمية على

ضعف ما في التكوين القاعدي لأصحابها، والتي كثيرا ما يحاول هؤلاء الاستعاضة بها بقضايا أخرى، كالتخفي وراء الأرقام والاستعراض الإحصائي غير المبرر في بحوثهم.

هذا، وإذا كنا نعتبر أن البحث السوسيولوجي يحكم مراحله منطق جدلي، افتكاكا وبناء وتحقيقا، بحيث نصبح نتكلم عن مؤشرات نجاح أو فشل هذا البحث أو ذاك، انطلاقا من تحقيق هذا الشرط الجدلي أو انتفائه، والذي نعتبر أن المقاربة السوسيولوجية أفضل مثال شارح لهذا المنطق، فهي وكما أشرنا سابقا مؤثرة في عدد من المراحل المفصلية السابقة واللاحقة لها، فبفضل مفاهيمها نضبط متغيرات عنوان دراستنا، وفي ضوئها كذلك نصوغ سؤالنا المركزي في اشكاليتنا وكذا متغيرات فرضياتنا، هذه الأخيرة التي نبني بفضلها كذلك الإطار النظري لدراستنا، ثم أخيرا الحضور الميداني للمقاربة الذي يمنح للبحث هويته.

قائمة المراجع:

- جان بيار دوران، روبير فايل، علم اجتماع المعاصر، تر: ميلود طواهري، ابن النديم للنشر والتوزيع بالجزائر، ودار الروافد الثقافية، بيروت، ط1، 2012.
- جاك هارمان، خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، تر: العياشي عنصر، الميسرة للنشر و التوزيع و الطباعة، الأردن، ط1، 2010.
- جان ميشال برتيلو، بناء علم الاجتماع، تر: جورجيت الحداد، عويدات للنشر و الطباعة، بيروت، ط1، 1999.
- ريمون بودون، العمل، المطول في علم الاجتماع، تأليف مجموعة من المؤلفين،ج1، تر: وجيه أسعد، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2007.
- عبد الكريم غريب، منهج البحث العلمي في علوم التربية و العلوم الإنسانية، منشورات عالم التربية، المغرب، ط1، 2012.
- غي روشيه، مقدمة في علم الاجتماع العام، التنظير الاجتماعي، تر: مصطفى دندشلي، مكتبة الفقيه، بيروت، ط1، 2002.
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، معجم الوسيط، ج2، مطابع دار المعارف، مصر، 1972.
- نيكلاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، تر: يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، بغداد، 2010.
- Abraham H, Maslow, Motivation and Personality, Harber and row, Publishers, 1954.
- Mohammed Bensaid, Et Outres, économie Des Organisations, Tendances Actuelle, Paris, 2007.
- Philippe Bernaux, Sociologie Du Changement Dans Les Entreprise Et Les Organisations, elle édition, seuil, Paris, 2010.
- Reger Aim, L'essentiel de la théorie des organisations, Gualino éditeur, Paris, 2006.
- Yao Assogba, La sociologie de Raymond Boudon : Essai De Synthèse Et Application De L'individualisme Méthodologique, L'Harmattan, France, 1999.